مؤسسة الدراسات الفلسطينية
Institute for Palestine Studies
www.palestine-studies.org

على الأرض ما يستحق الحياة

محمود درويش

بْرَيْتِن بْرَيْتِنْباخ*

الأمر المفجع والمرعب**

[النص المنشور أدناه هو الجزء الأخير من نص أطول كتبه بريتن بريتنباخ (Breyten Breytenbach) بعد رحيل محمود درويش في 9/8/2008. والنص الأصلي مؤلف من قسمين، القسم الأول (غير المنشور هنا) معظمه اقتباسات من رسالة مفتوحة كان بريتنباخ وجهها إلى أريئيل شارون في إثر زيارة قام بها الكاتب إلى رام الله في نيسان/أبريل 2002، مع مجموعة من الكتّاب العالميين، في أعقاب اجتياح الجيش الإسرائيلي للضفة الغربية في العام المذكور.

وقد وصف بريتنباخ في رسالته ما يقوم به شارون وجيشه ضد الفلسطينيين بأنه جريمة ضد الإنسانية، وسيدمر آمال الشعب الفلسطيني ويُضعف إسرائيل أيضاً، وقال إن لامبالاة شارون تجاه ذلك أمر مفجع ومرعب. أمّا القسم الثاني، المنشور أدناه كما أسلفنا، فيتحدث فيه الشاعر الجنوب إفريقي عن علاقته بمحمود وشعره، ونظرته إليه كإنسان وصديق ومبدع. وقد قُرئ النص كاملاً، مع قصيدة ألّفها بريتنباخ في رثاء صديقه، في احتفاء عالمي أقيم تكريماً لذكرى محمود وشعره في 5/10/2008. ■]

مرّ الوقت. والرسالة التي وجهتُها إلى شارون جلبت عليَّ كثيراً من الانتقاد، كما كان متوقعاً (هل توقعتُ حقاً غير ذلك؟) – قدحاً وذمّاً، وحتى سِباباً. كلود لانزمان، السينمائي المرموق الذي أنتج فيلم "هاشوآه/المحرقة"، نشر مقالاً طويلاً في "لوموند"، موجهاً ضد وول سوْينْكا، وخْوان غويتِسولو وضدي (خوسيه ساراماغو لم يستحق منه حتى الذكر لأنه شبّه الأوضاع في الضفة الغربية بـ "أوشفيتس")، شرح فيه لماذا أنا بصفة خاصة (الشاعر الواعد في حينه) صرت سمّاً زعافاً معادياً للسامية. وكتب فريتس رادَتْس رسالة مفتوحة نشرها في "فرانكفورتر ألغماينه تسايتونغ" بعنوان: "أنت عار على البشرية، يا صديقي."

لكن حينذاك تذكرت النص الذي كتبه محمود درويش وقرأه في اليوم الذي زرنا فيه مركز السكاكيني الثقافي في رام الله. (بعد أيام قليلة سيقوم الجنود الإسرائيليون، رداً على هجوم انتحاري فتاك جداً في داخل إسرائيل، بنهب المركز؛ سيحطمون كل شيء ويلطخون الجدران بنجمة داود). "ما هي رسالة الشعر في هذا الزمن البربري؟" سأل محمود بصوت رقيق، متطلعاً من خلف نظارته السميكة... "الشعر هشٌّ على الرغم من التجائه المجازي إلى قوة الحرير وصلابة العسل. هشٌّ، لأن عمله على تغيير الروح وتكبير القلب بطيء وغير مرئي. وبالتالي، مع أنه يجمع في ذاته الحميمي والعام، لا يستطيع الإفلات من صورته كمولود للوَحدة ولحافّة العالم الخارجي، مثل صدى منبثق من حلم غامض... على الشعراء ألاّ يرفضوا هذه الوَحدة، ولا أن يمجدوها، لكن أن يستمروا في كونهم المسافرين الأبديين بين دخائل نفوسهم والخارج. ويقع على عاتقهم التخفيف من عبء التساؤلات عن فائدة الشعر. إنهم هم أنفسهم من يتوجب عليهم أن يجددوا القلق الملازم لفنّهم بقلق خلاّق أعمق غوراً، لأنهم لن يجدوا أبداً نظرية حصينة ضد التفجرات الشعرية..."

"إن البشرية الآن هي في (حالة طوارئ)."*

ثم، في 10 آب/أغسطس 2008، بلغني النبأ المروع أن محمود درويش توفي.

أمور كثيرة حدثت في الأعوام الماضية [منذ أن وجّه بريتنباخ الرسالة المفتوحة إلى شارون]. الجنرال شارون قرر، من طرف واحد، سحب قواته من قطاع غزة وإزالة المستوطنات التي كانت قائمة هناك. واتضح أن ذلك لم يكن، للأسف، إيذاناً باتفاقية سلام شاملة يمكن أن تفضي في نهاية المطاف إلى دولة فلسطينية قابلة للحياة على أراضٍ متصلة، وإنما كان جزءاً من استراتيجيا لإحكام تقطيع أوصال فلسطين، وتضييق الأنشوطة حول رقبة الضفة الغربية كي يزيد في تدمير أمل سكانها بالعيش كشعب متميز من غيره. وأُنشئ جدارُ عار ألحق مزيداً من الأرض الفلسطينية [بإسرائيل]، وفصل القرى عن حقولها. إن لإسرائيل معرفة بـ [إنشاء] الغيتوات موروثة من أسلاف قاطنيها.

وسقط أريئيل شارون صريع جلطة دماغية خطرة. يا له من مصير غريب! لعل أسعد أوقاته كانت تلك التي أمضاها كفلاح في الصحراء، يحوّل الأرض الجدباء إلى أرض خصيبة، أو يبحث عن عنزة تائهة. إن شيئاً ما في هذا الشخص أتاني بأطياف من الماضي. لقد عرفت فلاحين محاربين مثله تماماً – أقوياء وأجلافاً ودهاة، وعلى خلاف في أحيان كثيرة مع رؤسائهم وسكان المدن المرفهين. أشخاص ضخام قتلوا بسهولة أناساً كثيرين، مع أنهم غالباً ما كانوا متدينين بإخلاص. أشخاص يئسوا نهائياً، ومن دون تذمّر، من التاريخ والطبيعة البشرية.

هل علم أصلاً بـ "رسالتي المفتوحة"؟ هل ظلمتُه باستهدافه من دون غيره؟ هل استسلمتُ لديماغوجية الغضب السهلة في مكان لم أكن مُجبراً فيه على دفع أي ثمن، وحيث لم أكن أمتلك ما يعينني على إدراك لاعقلانية الألم؟ شارون لم يمت. إنه، وأنا أكتب ما أكتبه الآن في سنة 2008، لا يزال حياً في مكان ما، غارقاً في غيبوبة كاملة. أو بالأحرى، إنهم يبقونه "حياً" مثل نبتة أو كائن من الكريستال بمساعدة أرقى ما توصلت إليه علوم الطبّ – من دون أي مستقبل أو مكان يمكن أن يعود إليه. أين؟ في سرداب تحت الأرض؟ في غرفة معقمة؟ أو ربما، في كهف صحراوي؟

ثم أتت الحرب المشؤومة التي شنتها إسرائيل على لبنان، غزو الجنوب ومحاولات إلحاق أكبر قدر ممكن من الدمار بالبنية التحتية للبلد، بحقد أعمى لكن منهجي. وأعقبها في غزة انفجار الوحدة والتماسك الفلسطينيين من الداخل، وتقاتل الفصائل في الشوارع، وهذا ما كان محتّماً أن يحدث في ضوء خزي "المفاوضات" الزائفة التي لم تسفر عن أي نتائج ملموسة مهما تكن، والضغط المتواصل والاغتيالات المدروسة، وتدمير صدقية منظمة التحرير الفلسطينية، كل هذا، عجّل حدوثَه فسادُ الكوادر. وصار الفلسطينيون شعباً معدماً وجائعاً، وتحطمت أحلامهم.

والتقيتُ محمود درويش مرة أُخرى. كان لي شرف المشاركة في تكريمه في إيكس – آن – بروفانس. كان مريضاً جداً في ذلك الوقت، جراء داء خطر يسري في عروق عائلته، وكان قد خضع لعملية قلب مفتوح، وأمضى بعض الوقت في غيبوبة. ونجم عن هذه الزيارة الغامضة لمجاهل الغيب ديوان شعر مبهم لكن شجاع، **الجدارية**. اجتمع الأصدقاء حوله؛ جلسنا على مصطبة تحت أشجار الدُّلب في تلك البلدة الجنوبية، بلدة شعراء التروبادور وعازفي البيتانك (Pétanque). دخّنا سيجاراً وشربنا نبيذاً. ولوهلة كان هناك ضوء، وكان هناك طيور، وشاكسَنا محمود ممازحاً. وقد أتى العمال المهاجرون الناطقون بالعربية من أماكن بعيدة، من جميع أنحاء المقاطعة وملأوا القاعة حيث قرأ قصائده. هذا ما كان يحدث دائماً. وذكّرني المشهد بتلك الليلة، عندما قرأنا معه [أشعاراً] على خشبة مسرح في رام الله – كيف كان المكان عابقاً بالنشوة، ومزدحماً بفقراء ساروا فوق التلال في العتمة، متفادين الحواجز الإسرائيلية، ليقفوا كتفاً إلى كتف، ويرددوا معه أبياتاً من قصائده، وأذكر كيف مازحهم محمود قائلاً إنهم يجب أن يختاروا الحمار رمزاً قومياً لهم. ثمة أوقات يعبق القمر فيها فعلاً بأريج العشب المسحوق الفوّاح ورائحة الأحجار.

نبأ موته جلب إليَّ كرباً وألماً كدتُ لا أقوى على احتماله. وكان من حظ بعضنا، قبل بضعة أسابيع من وفاته، أننا استمعنا إليه يقرأ أبياتاً من شعره في المدرج الروماني في آرل. كانت الشمس نازلة إلى المغرب، وريح صامتة تهزّ الأشجار برفق، وكان في استطاعتنا أن نسمع صوت الأطفال يلعبون في الشوارع المجاورة. جلسنا ساعات على مقاعد المدرج الحجرية العتيقة، مأخوذين بعمق قصائده وروعتها. هل كانت عن فلسطين؟ هل كانت عن شعبه المشرف على الموت، عن السماء المكفهرّة، عن العلاقات الحميمية مع أولئك الموجودين في الطرف الآخر من الجدار، عن "جندي" و"ضيف"، عن المنفى والحب، عن الرجوع إلى ما لم يعد موجوداً في الواقع، عن ذكرى البساتين، عن أحلام الحرية...؟

نعم – مثلما في نهر عميق الغور كانت هذه الأفكار كلها موجودة في شعره، وكانت، بالطبع، تتردد دائماً في قصائده؛ لكنّ شعره كان أيضاً عن الزيتون والتين وحصان يتراءى في الأفق وملمس القماش وسرّ ألوان زهرة وعيني محبوبة وخيال طفل بين ذراعي جدّه. وأيضاً الموت. برقّة، مرّة بعد أُخرى، برهبة، بالتلميح، بالتهكّم عليه، بل حتى بالتوق إليه – الموت. كثيرون منا أصابهم الذهول. ربما أحسسنا كما لو أنه يقول لنا وداعاً – أتذكّر الكآبة في عيني ليلى شهيد وفي شفتيها المرتجفتين. هكذا؟ على أرض أجنبية؟ توقف الزمن قليلاً، وتحولت نبرة الحزن إلى فرح تقريباً في انسياب الإيقاع السرمدي لعزف أخوين فلسطينيين في رداءيهما الأسودين على العود وهما يرافقان الكلمات الآتية إلينا من الأرض، ومن نسيم رقيق يهب على تلك الأرض البعيدة. أردنا أن نبكي، لكن كان هناك ضحك، وهوّن محمود علينا الأمر، وساد جوّ من المرح.

أتذكّر أننا، بعد ذلك، لم نرد أن نترك المكان. تلاشت الأضواء لكننا تلكأنا، احتضنّا بعضنا البعض وضم أحدنا الآخر إلى صدره. كنا غرباء يتبادلون النظرات، ويبحثون عن كلمات تُقال، عن أفكار ما. كم كان مربكاً هذا

الانفعال الجامح! أتذكّر كم أثّر فينا بعمق، وكم كان كريماً، وكم كان لطيفاً. وربما، لو عرف، لكان أراد أن يكون وداعه على هذا النحو. لا دراما. لا مسرحيات. لا تصريحات. وربما حتّى لا كثيراً من اليقين. يأس، نعم – وضحك. نُبل وتواضع المحارب. وبطريقة ما، ومن دون أن ندرك أو نفهم ذلك، رغبته في أن يخفف عنا. قال إنه يجرد قصائده من كل شيء ما عدا الشعر. كان يحاول الوصول على نحو أعمق حتى من أي وقت مضى، إلى المصير الإنساني المشترك والإحساس بكوننا جميعاً بشر. وربما كان يحاول أن يبلّغنا أن الوقت قد حان لأن "يتذكر أن يموت".

في اليوم التالي عندما كنا على وشك الرحيل، عندما تبادلنا الوداع في فندق نورد بينوس المزيّن بملصقات حلبات مصارعة الثيران الضخمة وصور المصارعين [....]، في الردهة العابقة برائحة زنابق الموت الزكية، أردت أن أقبّل يديه لكنه رفض.

سيمر الوقت. سيكون هناك تآبين واحتفالات. سيكون محمود "رسمياً"، و"صوت الشعب"... لقد عرف ذلك جيداً وقَبِله، وأحياناً كان يسخر برقّة من الغلوّ والتوقعات المستحيلة. قد يطوي النسيان الغضب. بل قد يمتنع السياسيون من محاولة سرقة نور ميراثه المعقّد، تساؤلاته وشكوكه، وربما يمتنع الشكّاكون في طيبة الدوافع البشرية، هذه المرة، من إثارة قرفنا بمنظر دموع التماسيح التي يذرفونها.

لقد رحل محمود. ما عاد منفياً لم يُقدَّر له أن يعيش ليرى نهاية لآلام شعبه – الأمهات والأبناء والأطفال الذين لا يستطيعون أن يعرفوا لماذا كُتب عليهم أن يولدوا ليذوقوا رعب هذا العيش، وقسوة موتهم العشوائي. لكنه لن يتلاشى. لن تبهت هيئته بملابسه الأنيقة البعيدة عن الموضة وحذائه الملمع، ولا عيناه الذكيتان خلف العدستين السميكتين، ولا سخريته الرقيقة، ولا فضوله تجاه العالم وحميمية محاولته الوصول إلى القريبين منه، ولا تحليله الثاقب لنقاط ضعف الساسة وحماقاتهم. ولا إنسانيته، ولا الشرب الجيّد والسجائر الكثيرة، ولا كرم امتناعه من فرض ألمه عليك، ولا الصوت الآتي من فضاءات الشعر السرمدية، ولا القصائد، ولا القصائد، ولا فتنة كلماته الأبدية.

كل ما أريده من كتابة هذه السطور، ملتفتاً إلى ما أستطيع تذكّره من لحظات الفاجعة والرعب، هو أن أحاول الوصول إليكم. وبينما أنا ماضٍ في الكتابة تنبعث من بين الكلمات على الصفحة صورة شبحية: وجه يهودا عميحاي، الشاعر الإسرائيلي – صديقي، وصديق محمود. وأتذكر قصيدة ألّفها عن أب إسرائيلي يبحث عن ابنه الضائع، وراع فلسطيني يبحث عن حمل تائه عن القطيع، كلاهما يمشي على تلال وادي الموت الصفراء الجرداء، وأصداء نداءات كل منهما تتردد في الفضاء وتتلاقى معاً.

أخبرت محمود في آرل أنني أريد أن أقترح على زملائي الشعراء أن نعلن، كل واحد منّا، أنفسنا "فلسطينيين فخريين". وحاول استبعاد الفكرة ضاحكاً بارتباك أخوي. وربما كنت مخطئاً بالاقتراب، عن غير قصد، من مناطق حياء وحزن لطّخا أرضه عميقاً بحيث لم يعد من الممكن التكلم عليها. ألم يكن هو أيضاً يفكر في الأصوات المترددة في قصيدة عميحاي؟ لكن محاولاتنا الاقتراب ممّا لا عزاء له، أو فهمه، لا يمكن إلاّ أن تكون، في الحقيقة، تافهة وخرقاء. نحن لا نستطيع أن نموت أو نكتب بدلاً من شعبه، بدلاً من محمود درويش. ومع ذلك، على نحو ما، ومهما تكن البادرة عقيمة، كنت بحاجة إلى أن أحاول أن أقول له إن شعره مهم لنا جميعاً في العالم؛ إنه نابع من ضوء خاص وتربة خاصة، ويحمل تعابير نضال خاص جداً وحياة تحولت إلى كلمة، لكنه يصل أيضاً إلى وعينا الإنساني وشرط وجودنا، وإنه سيكون شرفاً لنا أن نحاول أن نفهم أنفسنا من خلال فهم من أين أتى شعره.

لكن الأوان كان قد فات. كان في طريقه إلى الرحيل. لقد رحل. لكنني واثق بأنني بمشاركتي إياكم هذه اللحظات الخاطفة، نكون جميعاً نحتفي بسموّ حياته وجمالها.

أعرف أن بعضكم ربما بكى كما فعلتُ آنذاك، وكما أفعل الآن، عندما سمعنا خبر وفاة الشاعر بعيداً جداً عن وطنه، وفي هيوستون من بين جميع الأمكنة، مع أن معظمكم لم يكن قد التقاه شخصياً.

في مكان ما، وقلوبنا تهفو إليه، ربما نسمع خفق أجنحة طيور فوقنا، فنتوقف، ونحمي عيوننا من ضوء الشمس المبهر، ونبحث في السماء عن ذلك الإيقاع الغامض. ■

(*) شاعر جنوب أفريقي.

(**) **ترجمة**: أحمد خليفة.

(*) على الرغم من محاولاتنا كلها، لم نتمكّن من العثور على الأصل العربي للعبارات المقتبسة هنا من محمود درويش. راجع في المقال التالي نص الكلمة التي قرأها محمود أمام وفد الأدباء العالميين في مركز خليل السكاكيني في رام الله في أواخر آذار/مارس 2002.

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar_index.aspx